فصول

فصول	رواية
الكاتب	د. محمد محمود أسعد
تنفيذ الغلاف	مصطفى النجار
التدقيق اللغوي	إسراء جمال
رقم الإيداع	2022-30612
ISBN	978-977-6922-12-9

المؤسسة للنشر والتوزيع	Facebook Page
contact@almossasa.com	E-mail
https://almossasa.com	Site
الإسكندرية - ميامي - سيدي بشر	Add.
01000976876	Tel.

المدير العام

مصطفى النجار

نصنع الفارق بالحروف..

ونطارد حلمك كأننا نراه

د. محمد محمود أسعد

فصول

رواية

المؤسسة للنشر والتوزيع
Almossasa Publishing House

إهداء

إلى تلك الفاضلة التي عَبَرَتْ معي دياجير الغربة بصبر، إلى تلك الرفيقة التي جاورتني المسير في وهاد الأمل حتى وصلنا معًا إلى شاطئ الرضا، إلى الواقع الذي تغلّب على شطحات آمالي، إلى الصبر الذي خفَّف عني آلامي، إلى العقل الذي هدَّأ من ثورتي وأوهامي، إلى رفيقة صباي وشغفَة شبابي وهدأة شيخوختي، إلى الغالية، رفيقة دربي فيما مضى، وشريكة أيامي فيما بَقِيَ..

أهدي إليها هذا العمل المتواضع.

محمد محمود أسعد

إضاءة

قيل إن من يكتب ما يعيش يكتب بقلبه لا بقلمه، فما ينطلق من أسارير قلبك سيستقر في سويداء قلبي فما بالك قارئي العزيز إن كان ما سيرد في رواية (فصول) قد عاش- بعضه أو كله - كلُّ قلب اكتوى بلهيب الاغتراب والابتعاد عن أهله ووطنه في مشارق الأرض ومغاربها، واعتلج قلبه بالشوق والحنين إليهما.

في رواية (فصول)

تتعرف قارئي العزيز عن قرب على كثير من المدود والجزور في بحور الغرباء، ستلحظ اختلافًا واضحًا بين آمال البدايات وأماني النهايات، ستكون أقرب إلى ما تضيق به صدورهم من هموم ثِقال وما ترنو إليه قلوبهم من أمانٍ عِظام لربيع العمر هناك في الوطن، ليتنفسوا فيه الصعداء فتسطع شمسهم من جديد، ويذوب من على أبدانهم صقيع السنين.

قالوا إنَّ من لا يكتب ما يعيش لن يجد من يقرأ، وإن السرد القصصي وسيلة مهمة لتبادُل التجارب الإنسانية، من هنا جاءت فكرة رواية (فصول) التي تحكي بطريقة السرد بأسلوب المتكلم والتضمين قصة عائلة عربية ما زالت تعيش سنين الاغتراب ببروق ورعود، وظروفٍ تؤلم القلب، وتزيد عليها قروح الأيام.. يُشفى بعضٌ منها، لكن يأبى قرح الشوق والحنين للأهل والوطن أن يندمل..

رواية (فصول) تجربة سردية ترصد عن قرب تقلبات مفاصل حياة من يعيشون خارج أوطانهم، بين فرحة بدايات يتطلعون فيها إلى تغيير جذري لحالهم المأزوم وبين أمل نهايات يتمنوّنه أن يتوّج بلمة لقاء مع الأهل والأحباب في فيافي الوطن، بين حلاوة البدايات وأماني النهايات..

تسعى رواية (فصول) إلى تجسيد آمال حياة الغرباء وآلامهم من خلال تسليط الضوء على عائلة عربية سعت كغيرها لتغيُّرٍ منشود من خلال سفر إلى شطآن الخليج، لتعيش فيه المعنى الحقيقي للغربة بما فيه من اختلافات وتباينات في مفاصل الغربة التي أشبه ما تكون بفصول البيئة الكونية المحيطة بنا، من حيث تقلباتها بين ربيع وصيف ثم خريف وشتاء.. لكن باختلاف مشهود في الترتيب والمدد؛ فقد تمُر على الغريب خلال يومه الواحد فصولٌ أربعة يتنقل فيها بين وهج صيف وهدأة ربيع، وقحط خريف، ولعج شتاء، وقد يختلف الترتيب فترى أيام الغريب سعيدة مزهرة، وفجأة ينهار مؤشرها وتنقلب إلى كآبة وضيق وكأن بركانًا فيها سينفجر، فغياب التسلسل المنطقي لتلك الفصول ومددها هو ما يميز أيام الغريب ولياليه.

رواية "فصول" ليست سنوات من العمر تقضيها عائلة عربية بعيدة عن وطنها بما فيه من أهل وذكريات بحثًا عن رزق وراء البحار وحسب، إنما هي أيضًا حلمٌ بشغفة لقاء لأديم أرض درَجَت عليه أول خطواتها وأمضت فيه أول شبابها، إنها حنينٌ ممتد لربيع عمر تتمنى أن تُعيد فيه الوصال كما كان مع من أحبتهم وأحبوها في سالف الأيام؛ فراوية "فصول" هي (حياة) المشاركة الفاعلة في هدأة الفصول وتقلباتها، والشاهدة عليها طوال السنين، ورفيقة دروب بطل القصة (عبدو) في حِلِّه وترحاله.

أليس الغرباء هم أقرب الناس إلى الله لأنهم يؤدون امتحانًا مشهودًا في كل يوم؟! أليست الغربة هي وحدها من تجمع في أيامها ولياليها السعادة والشقاء؟! أليس يوم الغريب أشبه بفصول متباينة ترقُّ وتلطف بإشفاق، تعربد وتزمجر بلا رحمة؟! أليست الغربة تعني

تحوُّلك أيها الغريب إلى رجلٍ آلي لا يعيش حياته الاجتماعية كما يجب ولا يستمتع بثمرات نجاحه مع من يحب؟! أليس مكروبو الغربة دائمي الوقوف على جرفٍ هارٍ من الهموم نهارهم مضنٍ وليلهم مليء بالآهات والحسرات؟ فأيُّ تعبٍ وإنهاك وقلق هم يعيشون فيه؟! ألا يُرهقُ عيشُهم هذا الأرواحَ فتتعب والقلوب فتتكسر؟! هل عليهم أن يعيشوا فقط على أملٍ بغدٍ ليس كالأمس ولا حتى كاليوم!

لكم أنت حزين أيُّها الغريب! كل شيء فيك يأخذك إلى الذهول والاختناق، هكذا هي فصول الغربة!! تعلو بك حينًا وتسفل بك أحيانًا، فلا تثبت في صعود ولا تستقر في هبوط، فما أصعب أن تعيش مُجزءًا بين هنا وهناك.

مهما يكن، تبقى علاقة الغريب بوطنه علاقة ذات أبعاد شديدة الخصوصية؛ لأن أساسها الحب اللامشروط المُجرد من أيِّ مصلحة، علاقة عطاء دون انتظار وحنين لماضٍ جميل وأمل بغد أجمل، علاقةٌ نقية كثلج، لا يُقلل من نقائها أي دخيل.

تتعدد سنواتك يا غربة، وتتنوع فصولك بين خضرة ويباب لكن يبقى الحنين لهناك، للوطن الأم في صميم الفؤاد ما حيينا.

نهواك يا هناك كما أنت، بعبوسك نهواك.. بابتسامتك نهواك..

لله درُّك! من أنتَ يا هناك؟ ومن تكون؟

هل أنت الحب؟! هل أنت القوة؟! هل أنت المَصير؟! هل أنت الضمير؟! هل أنت الأمان أم إنَّك الحياة؟!

المؤلف

د. محمد محمود أسعد

جارة الجبل

جبل حفيت.. أشبه برجلٍ هانئ يتَبسّمُ في وجه غادة حسناء بين يديه، يُقبّل وجنتيها، ويبارك هناءة عيشها ليستكمل معها جمال الحياة ورِواء السنين..

مدينة العين.. مرآةٌ صافية يَتجَمَّل فيها المكان بليله ونهاره، بأرضه وسمائه، مدينة أشبه ما تكون بحديقة ممتدة تزدانُ أطراف شوارِعها بأشجار نخيل، وأنواع أخرى كالكينا والزينة، لتكون بأكملها واحة غنَّاء وحديقة غنوج، فرُويدًا أيتها الرشيقة في خطاكِ على قلبٍ متيم وجذر ممتد إلى أديم الدهور وسالف الأزمان، رفقًا بطيورٍ تتطايرُ حولك، تصعدُ فرحًا حتى تُلامس بأجنحتها جانب السماء، وتهبطُ سرورًا حتى تُصافح رِقةَ الماء، تُغرد في صعودها وهبوطها في فيافيكِ الخضراء أجمل الألحان..

***

بقلوبٍ تخفقُ بآمالٍ عِظام، تحلمُ ببروق السعادة في لياليها من جديد، بدأنا السعي بحثًا عن أملٍ جديد يُريـح الفؤاد ويثلج الصدر، وينفي عنَّا مغبَّة الهجر والضجر، أملٌ يجمعُنا ولا يُبعدنا عن بلدٍ قاطنوه كُثر والحالمون فيه أكثر، تطلعنا للتغيير من جديد ولكن هذه المرة من داخل الحدود الجغرافية للإمارات، حيث جاءت الفرصة لعبد الله (عبدو) على غير ميعاد بمكانٍ يختلف فيه الاهتمام والرُّواد، هناك حيث المؤسسة التعليمية الكبرى في الإمارات، جاءه التشجيع على التقديم لإحدى الوظائف الإدارية المُعلن عنها في تلك المؤسسة عبر الصحف الرسمية، وكان له ذلك بعد أن ضمَّنَ سيرته الذاتية بالشاردة والواردة وبما يُمكِنُه أن يفعل.

انتظرنا وانتظرنا، ولكم هو الوقت طويل لمن ينتظر!

بعد سبعة شهور جاءه الطلب لمقابلة شخصية في المقر الرئيس للمؤسسة التعليمية في مدينة العين.

لضرورة ملء الشاغر قبيل موسم الإجازات، وقبل أن تُغادرهم الطيور في رحلتها السنوية إلى فضاءات أخرى في بلدانها الأم، جاءه الطلب على عَجَل لتقديم مستندات التعيين بعد اجتياز جميع الاختبارات والمقابلات اللازمة، ليبدأ مشواره الجديد ببداية النصف الثاني من عام بداية الألفية الثالثة.

بعيون المشتاقين للجديد ابتعدنا مرة أخرى عن بلد الزيتون، ولكن رحيلنا هذه المرة كان صوب مدينة أخرى غير جلفار، قرب جبل حفيت، إنها العين.. قيل إنها نعمةٌ كبيرة (مُجاورة الجبل) فإن لم تكن تهوى المرتفعات ولديك رهبة منها فلك من جيرة الجبال فوائد جمة، منها على سبيل المثال لا الحصر المنظرُ العام خاصةً إن كانت تكسوها خضرة دائمة، وتغطي قممها ثلوج الشتاء وغيوم الربيع، وتنحدر منها شلالات الأمطار ومنابع الجداول والأنهار، والحماية من الرياح الهوجاء، و قيل أيضًا إنها تحمي جيرانها من الحركات والاهتزازات الأرضية لثباتها كالرواسي والأوتاد التي لها دور هام في تثبيت القشرة الأرضية كما ورد في القرآن الكريم مرات عدة، وعلميًّا قيل عنها إنها تضاريس أرضية بهيئتها الظاهرة على سطح الأرض لكن لها امتدادات تخترقُ الغلاف الصخري للأرض، وأنَّ هذه الامتدادات تصل نزولًا لأضعاف ارتفاعها فوق سطح الأرض تمامًا كالوتد، أقله ظاهر على السطح وأغلبه مندسٌّ في باطن الأرض.

- مالِ الطيور تُغادرُ سَمانا؟ أضجِرت قُربنا أم عشقت سِوانا؟!

أبدًا يا جلفار، نرحل عنكِ بحكم الحاجة وهدف الهروب من كابوس التشتت من جديد، لم يمَلَّ المشوار منكِ يا جلفار، بل سنبدأه من جديد قرب جبلٍ آخر في مكان آخر من هذا البلد الجميل (الإمارات) فرِحين مسرورين بما مضى معكِ من أيامٍ وسالف أعوام.

ها نحن جئناكِ يا جارة الجبل عاشقين، وفي حقائبنا ريحان وياسمين، متمنين أن تكوني كما سمعنا عنكِ.. كريمة معنا، رحيمةً بنا..

ها نحن نعتلي صهوة التغيير من جديد بعون الله وجهدٍ مشكور لصاحب القلب الكبير، والدنا الثاني، جَبلنا البشري الأشم في غربتنا، ويا فرحة وهناءة من له سند وداعم في غربته!

ها نحن نترجل في محطة أخرى من محطات قطار العمر قرب جبل آخر، إنه حفيت، في حضنِه وعلى مرآهُ أوابد وحصون يرجع تاريخ بعضها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، تكتحلُ له مدينة العين بتاريخها العريق وحاضرها البهيج، بواحاتها، بأفلاجِها، بحدائقها الغناء، بهوائها العليل، ومقامها الجليل بين مدن الخليج، لتُرحب بود وسلام لكل من وصل، ليحلو معها وبها المسير لغدٍ جميل بعون الله.

في مدينة العين خمس واحات (العين، الجيمي، القطارة، الهيلي، والمعترض) تُعطى المدينة خُصوصية تتميز بها عن سائر مدن الإمارات، حيث تمَّ تأهيل الواحات لاستقبال من يرغب بالزيارة بهدف المتعة وإدخال البهجة والطمأنينة للنفس؛ ليرى فيها الزائر عن قرب الأفلاج، ويتعرف على كيفية نقل المياه الجوفية المتجمعة تحت

سفوح حفيت إلى الواحات، ولعل ذلك يعطي المؤرخين دليلًا كافيًا على صحة فرضية اقتران نشوء الحضارات بأماكن تتوافر فيها مقومات الاستيطان كتوفر المياه مثلًا، فأينما يوجد الماء توجد الحياة ويوجد التمركُز البشري، حيث تشير الشواهد التاريخية -كالمدافن الموجودة- إلى أنَّ واحات العين كانت مأهولة بالسكان منذ نحو ثلاثة آلاف عام.

ها هي العين، جارة الجبل تغفو كعروسٍ بهية مُبتسمة في حضن فارسها الأشم حفيت، من أعلاه تبدو كلوحةٍ فنية فائقة الجمال، يبدو ليلها كأنه خيالٌ يسحر لب الناظرين.

وذاك هو حفيت، جبلٌ ممتد -أشبه بحوتٍ على شاطئ - تابع لسلسلة جبال الحِجر، أشبه ما يكون بحدود طبيعية جغرافية بين دولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان، شامخٌ بارتفاعه الواصِل لـ ١٢٤٠ متر فوق سطح البحر، بهيٌّ باكتشافاته الأثرية؛ فعند سفحه يوجد خمسمائة مدفنٍ أثري يعود تاريخها إلى ما يزيد عن خمسة آلاف عام.

نعم هو حفيت، من يبتسمُ دائمًا لمدينة العين ويمد يديه إليها برعاية واهتمام، لتشكل معه لوحة فنية تبعثُ المتعة والسرور على مُحبي التصوير والمغامرة من أعاليه، وبداية حياة مشوقة ينعمُ فيها كل من يقصدهما بود وسلام.

***

يقضي عبدو أسبوعه الأول هناك قرب حفيت بعيدًا عنَّا كعائلة في جلفار، ويباشر عمله مستعينًا بالله وبمجملِ خبراته التراكمية إثر ولادة

جديدة له من جلفار اكتنز فيها الكثير من الخبرات العملية، ساعيًا منذ اللحظات الأولى قرب حفيت لإثبات الذات وفهم الموجود مهما كان صعبًا.

ففي عصر يوم الجمعة بأواخر شهر يونيو عام بداية الألفية الثالثة يرحلُ عبدو عن جلفار برفقة ابن صاحب القلب الكبير، الوالد الآخر الذي استضافه في بيتهم بأسبوعِه الأول واصفًا ذلك الأسبوع بالحلم، فساعتان من الزمن يستغرقُهما ركبُهما السائر من أرض جلفار ليَطلُ على مشارفِ حفيت ليعلَن لنا ذلك الوصول بداية مرحلة جديدة من حياتنا كعائلة، ونقطةُ تحول نسأل الله جلَّ شأنه أن يضفي فيها على حياتنا بريقًا من الرضا والسلام النفسي والاستقرار العائلي، وألا تكون- لا سمح الله- نفقًا آخر نخشى ألا يكون في آخره أي بصيص أمل، فيكون ذلك الوصول بداية النهاية لآمال قد نكون تاجرنا بها في سوق الأوهام، آمالٌ تتطاير مع هبات صحراء الخليج لا تترك لنا بعدها خيطًا من خيوط الحلم ولا شعاعًا من أشعة الرجاء..

حقًّا كان ذلك الوصول لنا بُعدٌ آخر عن الوطن، عاش عبدو في سابقيه ومعه أشكالًا عدة للوداع، كلها لم تكن سهلة علينا ولا عليه، قاسمها المشترك هو الشغف للجديد وللأفضل من خلال سفر عقب أعوام حبلى بأحلامٍ كبار.

قبيل المغيب يصل عبدو بمعية مضيفه إلى مشارف حفيت، حيث مدينة العين، وواصفًا لي ذلك اليوم بالقول:

- لا أنكر أبدًا أنها سحرتني، تلك الفاتنة بثوبها الأخضر الجميل المزركش هنا وهناك بألوان شتى من الزهور، ذكرتني بطبيعة بلدنا

الجميل؛ فرَوعَة العين دليل آخر على أن الإخلاص بالعمل وحب الأوطان يبنيان بلدًا من أجمل بلدان العالم طالما وُجِدَت الإرادة الصادقة، وقُدِمَت المصلحة العامة على المنفعة الشخصية.. نعم جمالُ العين دليلٌ آخر على عِظمة النيَّة وكبير جهد عُشاق وطنهم لتحويل قِفار الماضي إلى ربوع وجنان؛ لذا أصبحت إحدى المعالم الرئيسية ليس في الإمارات وحسب بل في الخليج العربي كونها تجمع بين الماضي التليد والحاضر الفريد، وتتمتع بإمكانيات كبيرة تؤهلها لتكون مكانًا مرموقًا للجذب السياحي، وواجهة مُثلى لاقتران الماضي بالحاضر والمستقبل.

- نعم، رأيتُ العين (جارة حفيت) من النظرة الأولى، مدينةٌ سخية بفللها وشوارعها الرحبة وحدائقها الغنَّاء، شامخة مثل أشجار نخيلها، زهرة بكل الفصول، أميرة مفعمة بنشاط تستدفئ بحضن حفيت، تعلو ثغرها البسمة دائمًا، صبيَّة بهية بثوبها الجميل تبدو فيه حلاوة الألوان وبدعة الصنيع.

- عقب سلامة الوصول أخذني ابن صاحب القلب الكبير والوالد الثاني بسيارته المكسيما بجولة في شوارع مدينة العين وأسواقها الشعبية ومراكزها التجارية، لم أدر إن كان مُضيفي قد قصد لفت انتباهي وإبهاري بجمالية الترتيب أم إنَّ الفاتنة هي من أدهشتني بواقعها البديع، ويُسر حياتها اليومية التي أسعدت نفس ووجدان كل من قصد الراحة والاسترخاء بعيدًا عن صخب وزحمة الحياة اليومية هناك في مدن أخرى في الإمارات.

نعم، إنَّها العين، بدت لي بنهاراتها ولياليها، جميلة، فاتنة، جاذبة لعيون وقلوب كل من يعشقون الهدوء، ويتطلعون إلى جمالية الطبيعة وسحرها الأخّاذ.

- يوم الوصول واصلنا التجوال في شوارع أشبه ما تكون نسخًا متشابهة، قاسمها المشترك حاراتٌ ثلاث بالذهاب والإياب، وجنبات خضراء مشجرة، ثمَّ ارتمينا منهكين في مطعم الديوان لنتناول الكباب الإيراني اللذيذ المحتوي على لحم غنم مطحون، ومتبل بخليط من الفلفل والملح والسماق والبصل المفروم إلى جانب الخبز الإيراني الشهي، ثمَّ قصدنا متعبين "بيت المضيف" مكان مبيتي الأول في منطقة الخبيصي لأُمضي أسبوعي الأول فيه وفي مدينةٍ أيقنت أن هدوءها رصين، وقاطنيها ينعمون براحة وسكون بعيدًا عن صخب المدن الأخرى؛ فعجلة يومها تتوقف ليلًا لتعاود المسير في الصباح الباكر من جديد شأنُها شأن أي مدينة قصدها الكثيرون للتنعُّم بتطورها الملحوظ، وربيعها الباسم رغم لهيب نهارها الممتد بين أوائل أبريل وأواخر أكتوبر من كل عام.
- وماذا بعد؟! تساؤلات عدَّة طرحتُها على مضيفي قبل أن تُسيّطر عليَّ كبوةٌ نومٍ تمنيتُ أن تكون أشبه بسكينة ليل تلك الفاتنة، خفتُ يومئذ ألا يكون نومي سريعًا لتغيير المكان وخفتُ من التأخر عن مباشرة العمل في الغد الباكر..

***

في أسبوعه الأول في مدينة العين يذهب عبدو مع نصيحة الأصدقاء ويستأجر لنا شقة في منطقة البريمي التابعة لسلطنة عمان المجاورة لمدينة العين، حيث المباني الجديدة؛ لنقضي فيها شهرَي يوليو وأغسطس بسرور وبهجة الجديد قبل أن ننتقل إلى الجيمي -إحدى مناطق مدينة العين- ونقضي فيها سنواتنا الأربعة الأولى لتتبدل تلك البهجة إلى تشتت بالٍ وهموم جمة راحت تؤرق أيامنا وليالينا، ويبدأ المشوار، وأي مشوار قربك يا حفيت!

لعل بدايات عبدو صعبة، لا لقلة خبرته العملية أو اختلاف أسلوب أو انبهار بالمكان والمرافق في المكان الجديد لكن الأهم لنا هو الاستمرار والتأقلم مع الجديد، كل شيءٍ كان أبيضَ كقلبه ومُذكراته قرب حفيت ملّونة كأحلامه..

لم ينبهر كغيره، ولم يتشدق رغم كل المفارقات والمقارنات التي فرضتها عليه الأجواء المحيطة، بدأ مشوار الألف ميل بخطوة متوكلًا على الله أولًا وعلى خبراته وصبره ثانيًا، مُتطلعًا بشغف الأمل لغدٍ أحلى بإذن الله.

***

صابرون

الزمان: الساعة الثانية صباحًا، يوم الاثنين، الثامن من فبراير ٢٠١٠م.

المكان: مدينة خليفة الطبية (أبو ظبي).

قلوب واجفة وعيون دامعة..

لحظات صادمة تهوي لها النجومُ حزنًا، وتخرُّ لها الحبال هدًّا.

لحظات لم تترك لنا فيها خيطًا من خيوط الأمل، ولا شعاعًا من أشعة الرجاء.

نظرةٌ طويلة منه ومنا، لم نسترجعها إلا مبللة بالدمع المنسجم.

- وداعًا لكل من كان يهمهم أمري، وداعًا لأخٍ أتركه وحيدًا في حياتكم الدنيا يترنح استغرابًا في دياجير يُتم الأخوة بعد أن أفارقه الآن؛ لأغدو مغردًا هناك في الرحاب الممدود.
- وداعاً لأمٍ ثكلى أفارقها الآن بعد سنوات عجاف عاشت فيها الأمرَّين معي دون ذنب سوى أنها ربيع دائم تعوّد على العطاءِ بلا مقابل ولا سؤال، أسأل الله أن نكون معًا مرة أخرى يوم نلقاكِ.
- وداعًا لأبٍ يفقد ريحانة قلبه الآن بعد أن قسوتُ عليه، وحرمته من نعيم السكون وهدأة البال رغم مباهج الحياة وحلاوة الأيام هنا.
- حيرة ليس بعدها حيرة، فلا أدري أهجرٌ آخر ينتظرني هناك أم ظفرٌ ومنأى عن عذابات البشر عايشتها في وجوم الأيام؟

بكلماته تلك لم أدر حينها أكان صغيرنا المُحتَضِر راح يعزينا على ما نحن فيه أم إنه يودعنا إلى غير رجعة؟